اللغة ـ الهوية: ثنائية الحضور والغياب
في فلسفة دريدا التفكيكية

د. نعيمة بولكعيبات
جامعة الإخوة منتوري – قسنطينة 1

الملخص :

اهتمت فلسفة دريدا بطرح القضايا الهامشية والمسكوت عنها في محاولة منه للقضاء على كل ما هو مركزي وثابت وأحادي، ومن بين أهم هذه القضايا مسألة(اللغة / الهوية)، فالعلاقة بينهما علاقة وجود وكينونة، حضور وغياب، ومن هذا المنطلق تشكلت فلسفة دريدا التي تقوم على نقد المركزية الغربية وتحقيق الانتماء الذاتي بعيدا عن الآخر المسيطر على القوة. وتتمحور فلسفة دريدا على فكرتين أساسيتين هما : التمركز حول العقل وميتافيزيقا الحضور أو نزعة مركزية اللوجوس /الكلمة . وتعتبر فلسفة دريدا استكمالا لـــ فلسفة هيدجر والتي أطلق عليها النزعة الأفلاطونية أو الميتافيزيقا أو انطولوجيا اللاهوت، ومن أهم المسلمات التي يركز عليها دريدا مسألة ارتباط اللغة بالهوية فهو القائل:«نعم أنا لا أمتلك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي »، لذلك نجد فلسفته قائمة على أسئلة مشتتة، مفككة، مبعثرة مثل :الهوية، اللغة، المواطنة، الأنا، الآخر...والتي أصبحت الهاجس المحوري لديه . لهذا سأتناول في هذه المداخلة ماهية الفلسفة التفكيكية وتاريخ نشأتها، ثم الولوج إلى ثنائية (اللغة / الهوية) في هذه الفلسفة والطريقة التي أثرت بها على مبادئها.

الكلمات المفتاحية

التفكيكية، دريدا، الهوية، اللغة، الظاهراتية

الملخص بالإنجليزية :

This study deals with the question of(language / identity) in the philosophy of Derrida founded on criticizing western centralism and ho achievement of self- assurance for form the other, the dominant. However , his philosophy is centered around two main ideas: reason and metaphysics of presence or

centralism of logos . Derrida´s philosophy is considered as a completion to Heidegger ´s philosophy called " Platonism trend " or " mrthapha physics" or " divine anthology" .one of the basic sayings Derrida focuses on is the link between language and identity . he says: " yes, I possess only one language although it is not mine ". Thus his philosophy is based on deconstructive questions such as: language, identity, citicenship, the other,…for this, the poper tries to answer what is deconstructive philosophy , the history of its existence and the duality of language and identity in the philosophy of Derrida.

توطئة:

كثيرة هي المواضيع التي تناولت التفكيكية بالبحث والتحليل، ومن الواجب الاعتراف بصعوبة هذه المغامرة التفكيكية لزئبقية هذه الحركة، فهي ولدت بين برزخ الفلسفة والنقد، فلا هي من الفلسفة ولا هي من النقد. ومن المواضيع الحساسة التي تعرض لها دريدا بالمناقشة ثنائية (اللغة/الهوية)، ولـــ اللغة أهمية بالغة في فكر دريدا حتى تحولت إلى لعبة لغوية شديدة التعقيد، ومن هذا المنطلق آثرت الخوض في هذه الثنائية، ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا، من أجل الوقوف على تاريخ نشأة التفكيكية وعلاقتها بالفلسفة، وعن العلاقة الخفية التي تربط اللغة بـــ الهوية في فلسفة وفكر دريدا.

❖ أولا: مرجعية التفكيكية

عادة ما يؤرخ لـــ عمر الحركة التفكيكية بعد عام 1966، وهو تاريخ انعقاد مؤتمر خطاب العلوم الإنسانية بجامعة جون هوبنكز، وفيه ألقى الفيلسوف الفرنسي "جاك دريدا Jacques Derrida"* ورقته المعنونة بـــ البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية، وأعيد نشر هذه المقالة في كتابه "الكتابة والاختلاف" L´ecriture et la difference (1967). غير أن هذه الورقة البحثية كانت بمثابة البيان التفكيكي وبداية

لـــ «قطيعة معرفية واضحة مع الافتراضات النظرية التي تنطوي عليها البنيوية»[1]. ورغم أن أسس التفكيكية جاءت في سياق ندوة عن البنيوية وحضرها العديد من روادها — بارث، غولدمان، ..– إلا أنها أعلنت بداية مرحلة جديدة في النقد والفكر البشري عموما عرفت بمرحلة "ما بعد البنيوية "، فالتفكيكية جاءت لتكون بداية نهاية البنيوية . غير أن هذه النظرية أو الفلسفة إن صح التعبير لم تنشأ من فراغ وإنما هي استمرار«شديد التكثيف لما كان يشنه هيدجر من هجوم على النزعة الأفلاطونية، وجاءت صياغة دريدا لعمله في شكل مناقشات نقدية لكل من روسو وهيجل ونيتشه وسوسير وكتاب آخرين بمن فيهم هيدجر نفسه»[2]. وفي حقيقة الأمر نجد أن النزعة التفكيكية أخذت مشاربها من ثلاثة مناهل أساسية « كانت مصدر إلهام النزعة التفكيكية؛ إذ زودها دريدا ببرنامج فلسفي، في حين هيأ لها فوكو صبغة سياسية ذات طابع يساري.ومع ذلك فلا يعد أي منهما نفسه ناقدا أدبيا ولا تطلع إلى تأسيس مدرسة في النقد الأدبي .ودون المنبع الثالث، أي دون كتابات بول ديمان»[3]، التي ساهمت في تأسيس النظرية التفكيكية .

كثيرا ما نجد أن النزعة التفكيكية التي اهتمت بالأعمال الأدبية تميل إلى التفكير الفلسفي أكثر منه إلى التفكير النقدي الأدبي، ونستشف هذا من اعترافات دريدا نفسه الذي صرح في أكثر من مناسبة بأن منطلقه الفلسفي الأول يتمثل في الفينومينولوجيا حيث يقول :«لا شيء مما أفعله كان ممكنا بدون الاتجاه الفينومينولوجي وبدون ممارسة الرد Reduction الفينومينولوجي والترانسندنتالي، وبدون الاهتمام بمعنى الظاهرة (...) هوسرل بالنسبة لي هو من علمني تكنيكا ومنهجا وانضباطا. وهو الذي لم يتخل عني قط .وحتى في اللحظات التي اعتقدت فيها أنه يلزم مساءلة بعض افتراضات هوسرل،

---

[1] ـــ ريتشارد رورتي، التفكيك، تر حسام نايل، ضمن موسوعة كومبريدج، ج8، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 01، 2006، ص 273.

[2] ـــ المرجع نفسه، ص. 273 .

[3] ـــ ريتشارد رورتي، المرجع السابق، ص 274 .

حاولت أن أقوم بذلك مع بقائي مخلصا للمنهج الفينومينولوجي»[1]، وبهذا الاعتراف الدريدي يتضح أن هذه النزعة ولدت من رحم فلسفي ظاهراتي هوسرلي .ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا ظاهرية هوسرل؟ وماذا أخذ دريدا من هذه الفلسفة وكيف طبقها في استراتيجته؟.

الظاهراتية «اتجاه فلسفي هو الأشد تأثيرا في القرن(العشرين).تنطوي هذه التسمية على الالتزام بالتخلي في الفلسفة عن كل تفسير سريع للعالم وعلى العودة، بعد ترك كل الأحكام المسبقة، إلى تحليل كل ما يتجلى للوعي»[2]؛ أي أن ظاهرية هوسرل تبتعد عن الأحكام الجاهزة والمسبقة وتسعى إلى تأسيس جديد للفسفة والنظر إليها «باعتبارها علما صارما»[3]، يكون الأساس لكل«نظام خاص بالفن العملي والمعرفة العلمية، وكذلك يحتوي على خاصية القبلي والعلم واليقين الخالص»[4]، والهدف من إتباع الفلسفة الظاهراتية هو« دراسة الخبرات بقصد بلوغ ماهيتها أو عللها»[5]، لذلك كان من الضروري لـــ هوسرل أن يجد منهجا يوصله «إلى العلم اليقيني»[6]. وبغية الوصول إلى هذا الهدف عرفت الفلسفة الظاهراتية ثلاث مراحل، كانت آخرها هي التي علمت دريدا المنهج والانضباط وهي "الفينومينولوجيا الترنسندنتالية "والتي حاول فيها هوسرل جعل «الفينومينولوجيا فلسفة أولى"fist philosophy" تفترض أن تكون كل العلوم متأصلة في مجال الخبرة الخالصة. وهدف الفلسفة الأولى، وهو غاية ما وصلت إليه الفينومينولوجيا

---

[1] ـــ جاك دريدا، في علم الكتابة، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط02، 2008، ص37 .

[2] ـــ بيتر كونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط 02، 2007، ص195 .

[3] ـــ المرجع السابق، ص 195 .

[4] ـــ علي الحبيب الفريوي، مارتن هيدجر "الفن والحقيقة "أو الإنهاء الفينومينولوجي للميتافيزيقا، دار الفارابي، بيروت، ط01، 2008، ص 13.

[5] ـــ يوسف سليم سلامة، الفينومينولوجيا المنطق عند إدمون هسرل، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2007، ص 10 .

[6] ـــ علي الحبيب الفريوي، المرجع نفسه، ص 9 .

الترنسندنتالية من النضج، أن تكون صحيحة مرة واحدة وإلى الأبد .وليس المطلوب من هذا النظام الفلسفي تأسيس العلوم الصورية والطبيعية فقط، وإنما العلوم الإنسانية أيضا وقد كان ذلك يقتضي من هسرل وضع نظرية في القيم وفلسفة التاريخ»[1].

أما الأساس الذي قامت عليه الظاهراتية فيقوم على مفهوم القصدية*، والتي تعني حصيلة تأليف وعلاقة متبادلة ثابتة بين «أفعال الوعي (مثل الإدراك، تذكر، أحب) وهي أفعال ترتبط بموضوع (فعل، التوجه، وجمعها)والموضوع كما يظهر في هذه الأفعال (الموضوع القصدي، ما هو معين، جمعها)»[2] ، فالقصدية لا تعد «الوعي تلقيا سلبيا أو لموضوعات من العالم الخارجي جُعلت جوانية .الأحرى أن الوعي تلقيب لأفعال نفسية أو خبرات قصدية ـــ إن الوعي دائما هو وعي بشيء ما : له على الدوام اتجاه يتوخاه أو هدف يسعى إليه بين الأشياء. والحق أن القصدية هي ما أتاح لنا أن نشيد موضوعا مقصودا من خضم المدركات الحسية التي نواجهها على الدوام . ما هو حاضر في وعينا ليس الشيء ذاته أو تمثيل للشيء، بل الخبرة بالفعل القصدي»[3]، والركن الآخر الذي يمكننا من إدراك الماهيات هي عملية الرد الفينومينولوجية التي تسمح لنا، على حد تعبير هوسرل، من بلوغ الأنا المتعالية أو الوعي الخالص أو "الأنا الترنسندنتالي " التي تحمل «العالم الخارجي في صورة ماهوية تتصف بالكلية واليقين المطلق، واستنادا إلى هذه الماهيات الكلية يمكن تأسيس العلم الكلي وإقامة أسس الفينومينولوجيا .الكلي الذي يخص الأنا الترنسندنتالي بوصفها موجودة في الواقع حقا»[4]، هذه الأنا التي تسمح لنا في الواقع إدراك اليقين الكلي فـــ «كل حالة وعي إنما تقصد شيئا ما وهو يحمل ذاته هو، بوصفه مقصود، الموضوع المقابل، وكل الأنا أفكر** يفعل ذلك بطريقته الخاصة»[5]،

---

[1] ـــ يوسف سليم سلامة، المرجع السابق، ص 11 .

[2] ـــ بيتر كونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، ص 195 .

[3] ـــ روبرت هولب، الفينومينولوجيا، ترجمة يمنى طريف الخولي، ضمن موسوعة كومبريدج في النقد الأدبي، ج 08، ص 444 .

[4] ـــ علي الحبيب الفريوي، المرجع السابق، ص 23 .

[5] ـــ علي الحبيب الفريوي، المرجع نفسه، ص22 .

وباكتشاف هوسرل لهذا الأنا الترنسندنتالي يصل إلى «الإدراك التلقائي للوعي والبنية التكوينية بين الأنا ترنسندنتالي والعالم الخارجي وإن كانت طبيعة الأول ماهوية وطبيعة الثاني مادية. إن العالم ليس سوى موجود في الوعي كموضوع مدرك تختص ماهية الأنا بأن تحيا في أنساق توافق القصديات التي تسري في الأنا أحيانا، والتي هي في أحيان أخرى إمكانية ثابتة يمكن أن تتحقق دائما»[1]، وهدف هوسرل الأول هو الانطلاق من نقطة لا نحمل فيها أي تصورات مسبقة، جاهزة، وإزاحة كل المعتقدات والأحكام اليقينية القاطعة، فعندما يعلق الباحث التصورات الجاهزة و« كل الأحكام الزمانية والمكانية على الموضوعات التي يدرسها مكتفيا بالتوجه إليها نفسها، ...، يكون بذلك قد حذف مؤقتا الوجود الخارجي للموضوع، وإحاله إلى موضوع قصدي متجه إليه الوعي»[2]، وبهذا تكون الفينومينولوجيا «طريقة ذاتية في تناول المشكلات الفلسفية والطريقة الذاتية ؛طريقة تدرس كل الأشياء بوصفها موضوعات للخبرة منظورا إليها في سياق الخبرة فقط، الأمر الذي يسمح لنا بالقول : إنها طريقة لا ميتافيزيقية أو إنها تنبذ الافتراضات الميتافيزيقية المسبقة»[3].

ومما تقدم ذكره، نجد أن هدف الفينومينولوجيا الأول هو تقويض الميتافيزيقا الأوروبية، فقد أدرك «هوسرل أن على أوروبا أن تتجه إلى استعادة المغزى الإنساني من العلم وأن تراهن على إثراء المشهد الثقافي .ينبغي التحرر من مفردات الحداثة والنموذج العلمي للمعقولية التي اشتقت من الرياضيات ومن الفيزياء(ديكارت، غاليلي)»[4]. ومن هذا المنطلق كان هوسرل أستاذ دريدا الأول وملهمه الروحي الذي أرشده إلى تقويض الميتافيزيقا الغربية أو النزعة الفلاطونية على حد تعبير هيدجير. هذه النزعة التي أوقد لهيبها نيتشه وعمل على استمرارها مارتن هيدجر ويتعلق الأمر بـــ«التبرؤ الجذري من النزعة

---

[1] ــ علي الحبيب الفريوي، المرجع نفسه، ص22.

[2] ــ الفينومينولوجيا المنطق عند إدمون هسرل، ص 16 .

[3] ــ المرجع نفسه، ص16 .

[4] ــ المرجع نفسه، ص 24 .

الأفلاطونية، أي من عتاد الفروق الفلسفية التي ورثها الغرب عن أفلاطون وهيمنت على الفكر الأوروبي بكامله»[1]، وعرف هيدجر هذه النزعة «الأفلاطونية بما دعاه الميتافيزيقا، وعرف الميتافيزيقا بأنها قدر الغرب»[2]، واعتبر كل من «ديكارت ونيوتن وكانط وجون ستيوارت ملْ وماركس، سوى مراحل في تاريخ الميتافيزيقا، إذ تظل رؤاهم أفلاطونية الطابع، حتى عندما يظنون بأنفسهم التبرئة من الطابع الأخروي . فهم جميعا يتشبثون، بطريقة أو بأخرى، بالفرق بين الواقع والظهور، أو بين العقلاني واللاعقلاني، ...، كل الميتافيزيقا بما فيها خصمها أي الوضعية، تتحدث لغة أفلاطون »[3]، وحتى نيتشه الذي بدأ هذه الحملة على الفلسفة الأفلاطونية، اعتبره هيدجر«ميتافيزيقيا، ميتافيزيقي إرادة القوة، فهو الفيلسوف الذي يقلب التعارض الأفلاطوني بين الكينونة والصيرورة»[4].فكان نيتشه الميتافيزيقي الأخير بالنسبة لهيدجر، لكن أغرب ما في الأمر هو أن يكون هيدجر نفسه آخر مخلفات الفلسفة الميتافيزيقية، على زعم دريدا، وعبر عن هذا في كتابه "الكتابة والاختلاف" قائلا: «إنما تُتَرجم جيدا التباس موقف هايدجر من ميتافيزيقا الحضور والتمركز اللوغوس. إنه متضمن فيه، ويقوم في الوقت بخرقه»[5]، لقد اعتبر دريدا هيدجر ميتافيزيقي الحضور بسبب تفسيره للكينونة والوجود حيث «يصف هيدجر الانتقال التدريجي، فيما يزيد على ألفي عام، من أفلاطونية أفلاطون إلى أفلاطونية نيتشه المعكوسة بأنه نسيان الكينونة، وقد حدث هذا النسيان بالتدريج .وما نسيان الكينونة، بحسب ما يقوله هيدجر، سوى خلط بين الكينونة والكائنات. فيزعم هيدجر أن أفلاطون انزلق من السؤال "عن ما الكينونة ؟" إلى السؤال عن "ما خصائص الكائنات العامة"»[6]، وفكرة

---

[1] ــ ريتشارد رورتي، التفكيك، موسوعة كومبريدج، ج8، ص 277 .

[2] ــ المرجع نفسه، ص277.

[3] ــ ريتشارد رورتي، التفكيك، موسوعة كومبريدج، ج8، ص 278 .

[4] ــ المرجع نفسه .

[5] ــ دريدا ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سيناصر، دار تابوقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2000، ، ص 124 .

[6] ــ ريتشارد رورتي، المرجع نفسه، ص 279 .

هذا الانزلاق لفكرة الكينونة يرجع إلى «انزلاق الغرب إلى هاوية القوة النيتشوية وانزلاقه إلى ثقافة توسلت بعقلانية وتضخم تكنولوجي جعلتهما غاية لها، وهي ثقافة قد باتت مهيمنة، هذه الفكرة هي عنصر مكون في فكر هيدجر يتخلى عنها دريدا ؛إذ يرى الاختلاف الأنطولوجي فكرة لا تزال واقعة في قبضة الميتافيزيقا»[1]، فمن مبادئ تقويض الميتاقيزيقا الغربية رفض اللوغوس والحنين إليه يقول دريدا: «ما من اسم فريد، حتى لو كان هذا الاسم هو الوجود .ولا بد لنا من التفكير في ذلك بلا حنين، بمنأى عن أسطورة اللغة الأمومية أو الأبوية الخالصة، ذلكم هو موطن البراءة المفقودة الذي يحيا فيه الفكر»[2]، ورغم أن دريدا يعترف صراحة أن ما وصل إليه من أفكار ونتائج لم يكن ليحدث لولا أفكار هيدجر وتساؤلاته إلا أنه يتبرأ من أنطولوجيته يقول : «ما قد حاولت عمله لم يكن ممكنا لو لا الانفتاح على تساؤلات هيدجر... لكن على الرغم من هذا الشعور بالدين لفكر هيدجر، أو على الأصح بسبب من هذا الدين، أحاول أن أعين في نص هيدجر... العلامات التي تنسب إلى الميتافيزيقا، أو ما قد أطلق عليه بنفسه أنطولوجيا اللاهوت»[3]. وبذلك يتخلى دريدا عن هيدجر وعن كل ما يربطه بفلسفته وأفكاره فـــ «لقد تحول دريدا عن استغراق هيدجر في تتبع الأصول الفلسفية المعتمدة إلى تطوير تقنية يمكن تطبيقها على أي نص تقريبا، قديم أو معاصر، أدبي أو فلسفي. وهذه التقنية هي ما نطلق عليه التفكيك»[4]. ومما سبق ذكره يمكن القول أن هذه التقنية الجديدة فلسفية المولد، غير أنها غير وفية لأصولها وتجد الحجج والمسوغات لغدرها بأصولها، فما هي هذه التقنية؟ وكيف عرفها رائدها ؟وما هو السبب الحقيقي وراء تمردها الدائم؟

---

[1] ـــ المرجع نفسه .

[2] ـــ المرجع نفسه، ص 280 .

[3] ـــ المرجع نفسه، ص 279.

[4] ـــ ريتشارد رورتي، التفكيك، موسوعة كومبريدج، ج8، ص 281 .

❖ ثانيا: ماهية التفكيكية عند دريدا

عندما نرجع إلى صاحب التفكيكية ونحفر حول مفهوم هذا المصطلح نجد أنفسنا في متاهة لا منتهية، فنحن ببساطة لا نجد تعريفا واحدا لدريدا يمكن أن نأخذه كمرجع لتعريف التفكيكية حتى نشك أننا أمام أمر لا يعرف، أو كأن صاحب التفكيكية نفسه لا يستطيع تحديد تفكيكيته .لذلك نجد تعاريفه تختلف بين الحين والأخر وتترجح بين الظهور والخفاء، بين الحضور والغياب، في عملية إرجاء للمفاهيم وعدم تحديدها، وكأن مفهوم التفكيكية نفسه يخضع لعملية تفكيك طويلة المدى. فنجد تصريحا قطعيا لدريدا في رسالة إلى صديق ياباني عام 1985، أنه من المستحيل تعريف التفكيك* Déconstruction أو تحديده، وأن هذا التعريف أو التحديد يكون منقوص المصداقية على أقل تقدير: «إن أي جملة من نوع التفكيك هو "س" أو التفكيك ليس "س" هي جملة تفتقر، وبشكل قبلي، إلى الملاءمة أو لنصفها بالحد الأدنى فنقول إنها جملة خاطئة»[1]، وكأن بالتفكيك هو عبارة عن ممارسة لا تخضع للتعريف أو التحديد، ثم نجده في مقولة أخرى يصف

---

* ــ يرد في المعاجم اللغوية أن مادة «فكك: ...، يقال فككت الشيء فاتفك بمنزلة الكتاب المختوم. وفككت الشيء: خلصته .وكل مشتبكين فقد فككتهما، وكذلك التفكيك، ابن سيده: فك الشيئ يفكه فكا فانفك فصله. وفك الرهم يفكه فكا وافتكه: بمعنى خلصه» (ابن منظور، لسان العرب، مادة فكك)، فالمعنى اللغوي إذن يقوم على الفصل والحل والخلاص. وأما مصطلح Déconstruction فهو بدوره ينقسم إلى: «1ــ السابقة Dé: وهي سابقة لاتينية تتصدر كثيرا من التراكيب الفرنسية، بمعنى النفي والانتهاء والقطع والتوقيف والتفكيك والنقض .2ــ كلمة Com: وهي كلمة مرادفة لسوابق أخرى (Co, Col,Com) تتصدر كلمات كثيرة، لا تخرج معانيها عن الربط والترابط والمعية (avec) .3 ــ كلمة Struct: بمعنى البناء . 4ــ اللاحقة (ion): وهي لاحقة مماثلة للاحقة (tion)، تدل كلتاهما على شكل من أشكال النشاط والحركة (action). وبتركيب هذه المقاطع المجزأة تدل كلمة Déconstruction على حركة نقض ترابط البناء» (يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة السانية وهران، 2004 /2005، ص 309).

[1] ــ جان غراندان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2007، ص164.

التفكيك بأنه «نسبوي، تشكيكي، عدمي، غير عقلاني، عدو التنوير، حبيس اللغة القديمة والبلاغة، يجهل التمييز بين المنطق والبلاغة وبين الفلسفة والأدب»[1]. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ما هو التفكيك؟.

لعلنا نجد ضالتنا في مقولات بعض المهتمين بالتفكيكية، فهي عند بول دي مان «النتاج الطبيعي لنمو الثقافة الغربية، نقدا معرفيا لايديولوجيا التمركز الغربي حول الذات، وسبرا لغور الاستراتيجيات المعرفية التي تؤدي إلى هذا التمركز وإقصاء الأخر»[2]، فالتفكيكية ليست فلسفة، ولا منهج حسب تصريحات صاحبها وإنما أصبحت «شعارا يؤشر على توجه معين في العلم السياسي والتاريخ والقانون مثلما الحال في دراسة الأدب»[3]. هذا التوجه الذي يسعى إلى تقويض المركزية الغربية "الميتافيزيقا"، التي تسيطر على الثقافة الغربية المتمركزة « حول العقل والصوت والذات، فهي حضارة لا تحتكم إلا إلى اللوغوس، ولا تصغي إلا إلى المنطوق والشفاهي وتؤثره على المكتوب – ولا معيار لها إلا معيار الذات المطمئنة إلى ذاتها –»[4]. وقد أخد دريدا على الثقافة الغربية هذه النظرة الذاتية التي تلغي حضور الآخر وتتجاهله، لذلك كان هدف دريدا قلب هذه المسلمات الغربية فـــ«التفكيكية لا يمكن أن تتقيد بالحيادية أو تنتقل إليها مباشرة .إذ لا بد أن تطبق من خلال حركة مضاعفة وعلم مضاعف، وكتابة مضاعفة. قلب التضاد الكلاسيكي وإزاحة النظام»[5]، ولا يكون هذا التغير الجذري في النظام الفكري السائد إلا بـــ قلقلة أسس هذه الفروع – المعرفية – قلقلة جذرية»[6]، والقضاء على الخلفيات

---

[1] ـــ جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 39 .

[2] ـــ بول د ي مان، العمى والبصيرة ـــ مقالات في بلاغة النقد المعاصرـــ، ترجمة سعيد الغانمي، المشروع القومي للترجمة، 2000، ص 03 .

[3] ـــ ريتشارد رورتي، المرجع السابق، ص 275.

[4] ـــ بول د ي مان، العمى والبصيرة، ص 04 .

[5] ـــ وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تريوئيل يوسف عزيز، دار المأمون للترجمة والنشر، ط01، 1987، ص 161 .

[6] ـــ ريتشارد رورتي، المرجع السابق، ص 275.

المسبقة والنظرة الأحادية الغربية .وأما حجر الزاوية في هذه الاستراتيجية ويقوم على مبدأ« تفكيك الفكرة – التي وسمها دريدا باسم الوهم السائد في ميتافيزيقا الغرب..»[1].

❖ ثالثا: التفكيكية وعلاقتها باللغة والأدب عند دريدا

بعد الحفر في الخلفيات الفلسفية والفكرية للتفكيكية يحق لنا أن نتساءل :ما هي العلاقة التي تربط الأدب بالتفكيكية ؟ ولماذا كان اهتمام دريدا منصبا على الأعمال الأدبية واللغوية؟

يقول دريدا شارحا عملية التفكيك: «إن عملية التفكيك لها في ذاتها بعد شعري، والتحليل التفكيكي الذي يتناول العمل الأدبي هو بويطيقا بشكل ما، أو على الأقل فيه ملمح من قوة البويطيقا. لكن المفكك يعمل على تلك النصوص التي تمتاز باحتوائها على طاقة فلسفية ربما تكون أكبر وأعمق من الخطاب الأكاديمي»[2]، فالتفكيكية تعمل على النصوص الأدبية العظيمة ؛التي تحتوي على طاقة فلسفية ورؤية فكرية، فهذه النصوص وحدها «قادرة على تقديم الحقيقة – كما يراها التفكيك– متعددة ومرَجأة، وعلى أي حال ليست مطلقة أو أحادية»[3]؛ لأن النصوص الخالدة تستقبل عادة لدى المتلقي مع خلفية مسبقة وحكم نهائي على قيمتها الفنية والجمالية والفكرية، وهذا الحكم النهائي يجب تقويضه، فليس هناك حكم نهائي ولا معنى نهائي فالنص في حقيقته – في نظر دريدا – «آلة تنتج سلسلة من الإحالات اللامتناهية . فهذا النص، باعتبار ماهيته المتعالية، يشكو أو ينتشي من غياب ذات الكتابة ومن غياب الشيء المحال عليه أو المرجع»[4]، ولكن كيف نقوم بتفكيك هذه النصوص؟

---

[1] ــ كريستوف نوريس، النفكيكية النظرية والممارسة، تر صبري محمد حسن، دار المريخ للنشر، الرياض، 1989، ص 57 .

[2] ــ جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 26 .

[3] ــ المرجع نفسه .

[4] ــ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترسعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 02، 2004، ص 124.

التفكيكية استراتيجية تقوم على «ذاتية القارئ، ويرمى إلى الكشف عن معنى مخالفٍ للمعنى الشائع للنص: معنى "مُهرب" في غضون النص وهوامشه –بالنسبة للمفكك– يحتاج إلى حدة البصر لظاهر النص ومكر الضبط ؛ وهو معنى كامن في متن النص –بالنسبة للمؤول– يحتاج إلى البصيرة والحدس والتعاطف مع النص»[1]، ولا يمكن القيام بهذا إلا باستعمال اللغة وعزل الذات المبدعة عن نصها – موت المؤلف عند بارث – فـــ«عندما يفصل النص عن قصدية الذات التي أنتجته فلن يكون من واجب القراء ولا في مقدورهم التقيد بمقتضيات هذه القصدية الغائبة – والخلاصة وفق هذا التصور أن اللغة تندرج ضمن لعبة متنوعة للدوال – كما أن النص لا يحتوي على أي مدلول متفرد ومطلق، ولا وجود لأي مدلول متعال، ولا يرتبط الدال بشكل مباشر بمدلول يعمل النص على تأجيله وإرجائه باستمرار، فكل دال يرتبط بدال آخر بحيث أن لا شيء هناك سوى السلسلة الدالة المحكومة بمبدأ اللامتناهي»[2]، فلا وجود لمعنى نهائي ولا محدود ولا مسبق ولا متعال، لذلك كانت غاية دريدا الأساسية « تأسيس ممارسة (فلسفية أكثر منها نقدية) تتحدى تلك النصوص التي تبدو وكأنها مرتبطة بمدلول محدد ونهائي وصريح، بل يطمح إلى تحدي ميتافيزيقا الحضور الوثيقة الصلة بمفهوم التأويل القائم على وجود مدلول نهائي، إن ما يسعى إلى البرهنة عليه هو السلطة التي تمتلكها اللغة المتجلية في قدرتها على أن تقول أكثر مما تدل عليه ألفاظها مباشرة»[3]، بذلك تدخلنا التفكيكية في متاهة اللامتناهي قصرا، وتكون هذه التفكيكية كما شرحها دريدا في مقولة من مقولاته بأنها «ما يحدث وأيضا هو إمكانية المستحيل»[4]؛ الذي يتحقق عن طريق اللغة، لذلك نجد في أغرب تعريف له لـــ التفكيكية في كتابه "مذكرات لأجل بول دي مان Mémoires pour Paul de Man " نشره عام 1988 يقول فيه :« إذا ما كان لي أن أتجشم بعض

---

[1] ـــ جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 18 .

[2] ـــ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 125 .

[3] ـــ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 124 .

[4] ـــ جاك دريدا، في علم الكتابة، ص46 .

المخاطر، وليحفظني الإله منها، فإن هناك تعريفا واحدا للتفكيك :مقتضب، يتميز بالإيجاز، اقتصادي وكأنه أمر من الأوامر ودون تحذلق هو: إنه أكثر من لغة plus d´une langue»[1]، ففي هذا التعريف يفاجئ دريدا جمهور قرائه بأن التفكيكية هي أكثر من لغة، بذلك تقترن التفكيكية باللغة. ولكن ما معنى أكثر من لغة؟ وقبل ذلك كيف ينظر دريدا إلى اللغة؟

❖ رابعا: ثنائية (اللغة /الهوية) في فكر دريدا:

عودنا دريدا بالابتعاد عن تقديم التعاريف القطعية والمحددة، وهذا ما نجده في تقديمه للغة الذي اعتبرها بيته، فهي تسكنه، ولكنها ليست لغته فهو أحادي اللغة، لا يمتلك إلا لغة واحدة ومع هذا هي ليست لغته يقول : « نعم، أنا لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي»[2]، ولكن يصف هذه الأحادية اللغوية بأنها« كانت وستبقى بيتي، هكذا أحسها، بل وهكذا أسكنها وتسكنني، وهكذا ستبقى»[3]. بل يصفها باللغة الوحيدة التي نذر نفسه لها ولكنها تبقى غريبة عنه وغريب عنها يقول «على أن هذه اللغة، اللغة الوحيدة التي نذرت نفسي للتحدث بها، من المهد إلى اللحد، هي كما ترى ليست لغتي، والحق أنها لم تكن كذلك مطلقا»[4]. فكيف تكون اللغة التي نتحدث بها ونتقنها ولا نملك غيرها ليست لغتنا؟

في حقيقة الأمر عندما يعتبر دريدا نفسه لا يمتلك أية لغة فهذا يعني أن ما تمثله هذه اللغة بكل حمولتها الثقافية ليست له ولا هو منها فـــ «اللغة هي الهوية الكبرى التي تنضوي تحتها تلك الهويات الفرعية الأخرى من دين أو عشيرة أو جماعة ما، فتحديد الهوية يعزز بواسطة اسم اللغة التي تفي بالوظيفة الرمزية للتمثيل على المستويين الاجتماعي والفردي، إذ لا يمثل الانتساب إلى العشيرة أو الجماعة فقط وإنما يمثل كل

---

[1] ـــ جان غراندان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ص 165 .

[2] ـــ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ترجمة عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، ط 01، 2008، ص 24 .

[3] ـــ المرجع نفسه، ص 23 .

[4] ـــ المرجع نفسه، ص 24 .

أنواع الولاء : إلى الدين وإلى الزعيم السياسي وإلى الايديولوجيا»[1]، وتصريح دريدا بعدم انتمائه للغة التي يتكلم ويكتب بها ويتقنها جيدا هو في حقيقته اعتراف صريح بعدم انتمائه لثقافة هذه اللغة، ولهويتها، ولجذورها، وبذلك يحاول معالجة قضية ارتباط اللغة بالذات، بالهوية، بالمواطنة، الفرنسية، اليهودية، ..فـــ «هل يمكن للغة أن تكون أساسا للهوية، ومن ثمة أساسا للمواطنة ؟»[2].

تعتبر لطيفة النجار «أن العلاقة بين اللغة والهوية علاقة وجود فكلنا يعرف – كما يؤكد المختصون –أن اللغة أسلوب حياة، وهي جزء أساسي من كينونتنا، ولها أثر كبير في الفكر والشعور، فهي لا تشكل معالم هويتنا فقط، ولكنها تحدد شروط القبول أو عدم القبول، ومعايير الانتماء أو عدم الانتماء »[3]، لذلك فإن المشكلة اللغوية عند دريدا مردها إلى مشكلة الانتماء والهوية، فهو لا يستطيع إغفال حقيقة كونه يهودي الديانة، جزائري المولد والنشأة، وفرنسي الجنسية واللغة، وحتى جنسيته الفرنسية لم تسمح له بأن يكون مواطنا فرنسيا عاديا بسبب الطائفة التي ينتمي إليها يقول: «كنت يافعا في تلك المرحلة، و لم يكن في مقدوري أن أفهم بشكل جيد – والواقع أنني ما زلت كذلك – ما معنى المواطنة، وما معنى فقدان هذه المواطنة؟ مع ذلك، فأنا على يقين من أن هذا المنع أو الاستبعاد – وكمثال على ذلك المنع من دخول المدارس المخصصة للتلاميذ الفرنسيين حصرا – يمكن أن تكون له علاقة بذلك الاضطراب الملاحظ في مستوى الهوية، ...، كما أنني على يقين أيضا، من أن منعا أو استبعادا من هذا القبيل يمكن أن يترك أثرا في عملية انتماء اللغة أو عدم انتمائها، في عملية الانتساب إلى اللغة، وفي الميل إلى ما ندعوه بكل بساطة: اللغة»[4]. وبهذا فقد دريدا هويته اليهودية، والعربية، ومواطنته الفرنسية يقول :« لقد فصلت في البداية عن اللغة والثقافة العربية أو البربرية ...لقد فصلت أيضا

---

[1] ـــ أحمد عفيفي، اللغة المؤسس الحقيقي لقيم الهوية والانتماء، ص 1 .مقال على شبكة الأنترنت، http: //wwwalarabiah.org/uptoods/pdf.

[2] ـــ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص 10 .

[3] ـــ أحمد عفيفي، المرجع السابق، 02 .

[4] ـــ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص 44 .

عن اللغة وعن الثقافة الفرنسية، ..، وأخيرا وربما أولا، فقد قطعت عن الذاكرة اليهودية ذاتها، وعن ذلك التاريخ وتلك اللغة التي كان يفترض أن يكونا تاريخها ولغتها في آن واحد»[1]، مما أحدث لديه اضطرابا في الهوية فلا هو يهودي يتقن لغتهم، ولا هو عربي يتقن العربية، وحتى اللغة التي يتقنها ويتكلم بها ويسكنها رفضته ورفضت انتسابه إليها، لذلك فهو لا يمتلك إلا لغة واحدة ولكنها ترفضه هذه اللغة التي «فرضت عليه من الخارج، إلا هذا الخارج تحول إلى داخل، بما أن الأمر يتعلق باللغة الوحيدة التي يعرفها ويستطيع الحديث والكتابة بها»[2]. ومن هنا كانت المعاناة اللغوية «التي صقلت التجربة الأساسية لجاك دريدا ولفكره التفكيكي»[3]، فهي معاناة لـــ "الهوية "المفككة بين ثلاث شعب متناقضة، فـــ الهوية عند دريدا «ليست شيئا معطى، سليما كان أم مصابا، لأن ما يبقى هو مسار المكابدة اللامنتهي والغريب لإثبات الهوية (أو لتحقيق الذات)»[4]. وفي عادة الأمر اللغة هي التي تسمح لنا بتحقيق الذات وإثباتها، لكن هذا ما يفتقده دريدا الذي تفكك عنده مفهوم اللغة فأدى ذلك إلى تفكيك المبادئ والأسس الثابتة، اللغة، المعنى، الدال، ... فلا وجود لمثل هذه الأسس والثوابت. وعدم امتلاك لغة أمة يؤدي إلى عدم امتلاك أهم ما يمثل عناصر الهوية وثوابتها، وببساطة لا نستطيع امتلاك اللغة يعني لا وجود لـــ «ملكية طبيعية خاصة باللغة، وإن وجدت فهي لن تكون إلا مجالا خصبا لحب التملك والغيرة، بل إنها ما هي إلا هذه الغيرة، وقد أفلتت من عقالها، فهي تأخذ بثأرها وفق مقتضيات القانون، هذا القانون الذي يرى أن اللغة مجنونة، مجنونة بذاتها، مجنونة وموثوقة يتوجب عليها أن تصمت»[5]، فلا أحد يستطيع أن يدعي امتلاك أكثر من لغة، وهذه اللغة الأحادية في حقيقة الأمر ليست لغتنا الخاصة وإنما هي لغة الأخر .

---

[1] ـــ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص ص 102.103 .

[2] ـــ الزواوي بغوره، المرجع السابق، ص 207 .

[3] ـــ جان غراندان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ص 170 .

[4] ـــ المرجع نفسه، ص 170 .

[5] ـــ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص 53 .

إن «التجربة المتعلقة بأحادية الآخر اللغوية هي في الواقع تجربة شاملة بما أنها تترجم الاغتراب الأساس للمسألة اللغوية عند الإنسان»[1]؛ لأن هذا الشعور بالاغتراب لا ينحصر في اللغة وحسب وإنما يمتد إلى الثقافة بسبب البحث عن اللغة الأم، يقول دريدا :« هذه هي الثقافة التي أوصلتني إلى تقدير مدى النكبات التي يمكن أن يتجرعها البشر جراء البحث عن لغة أم (أصلية)، ...، لذا فقد حولت وجهة ثقافتي نحو الثقافة السياسية ولغتي الأم (الأصلية) هي ما يقوله الآخرون، ما يتحدثونه»[2]. هذا الاصطلاح على اللغة الأم هو في حقيقة الأمر اصطلاح على لغة« صماء، بكماء لا تقوى على تقديم أي جواب»[3]، ووجود الآخر فقط يمنحني الهوية لذلك يجب إرجاء مفهوم اللغة الأم والبحث عن الاخ(تـــ)لاف أي البحث عن التعددية الغوية، اللغة اللانهائية، ففكرة العلاقة لا تتحقق إلا بوجود هذا الاخ(تـــ)لاف وبذلك يمكن تحقيق وجود هوية .

❖ الخاتمـــة:

نستخلص من خلال ما سبق ذكره أن التفكيكية استراتيجية تسعى إلى تقويض النص وكل فكر نهائي الدلالة والمعنى، فلا وجود لمعنى محدود أو لغة نهائية أو ثقافة واحدة. ومن هذا المنطلق لعب التفكيك على خلخة المبادئ الثابتة والنهائية، واللغة هي عنوان الثقافة، والقالب التي تتجسد فيه الثقافة التي تعبر عن أهم المرتكزات التي يبني عليها الفرد هويته، هذه الهوية التي أراد دريدا تشتيتها في مقولات المركزية الغربية التي كان هدفها الأساسي إبعاد الذات وإقصائها . وعبر هذه المقولات يتصالح دريدا مع ذاته، مع لغته الوحيدة، مع هويته المتمزق.

لقد استطاع دريدا عبر استرتيجيته التفكيكية من خلخلة الأسئلة الثابتة والمركزية في الفكر البشري واستبدالها بأخرى متأرجحة بين الوهم والحقيقة، وبين الكائن والممكن

---

[1] ـــ جان غراندان، المرجع نفسه، ص 174.

[2] ـــ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص 69 .

[3] ـــ المرجع نفسه، ص69 .

وبذلك فتح مجال البحث والنقاش في اللاممكن واللانهائي. إن محاولة تفكيك مقولة اللغة الأم والمرجع هو في حد ذاته تفكيك لمبدإ الهوية وأهم ركن فيها. فمحاولة تفكيك هويته وتفكيك لغته عبر رفضه لها ورفضها له هي في الحقيقة بداية لتفكيك الهوية البشرية والتماهي في كل ما هو موجود في قالب ظاهره التعدد والتعايش مع الآخر وباطنه تفكيك الذات والإنسان والفكر بصفة عامة.

قائمة المصادر والمراجع :

1. الزواوي بغوره، الفلسفة واللغة "نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة"، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط 01، 2005.

2. ريتشارد رورتي، التفكيك، تر حسام نايل، ضمن موسوعة كومبريدج، ج8، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 01، 2006.

3. جاك دريدا، في علم الكتابة، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط02، 2008.

4. بيتر كونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط 02، 2007.

5. علي الحبيب الفريوي، مارتن هيدجر "الفن والحقيقة " أو الانهاء الفينومينولوجي للميتافيزيقا، دار الفارابي، بيروت، ط01، 2008.

6. يوسف سليم سلامة، الفينومينولوجيا المنطق عند إدمون هسرل، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2007.

7. روبرت هولب، الفينومينولوجيا، ترجمة يمنى طريف الخولي، ضمن موسوعة كومبريدج في النقد الأدبي، ج 08.

8. جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سيناصر، دار تابوقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2000.

9. جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ترجمة عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، ط 01، 2008.

10. جان غراندان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2007.

11. يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة السانية وهران، 2004 /2005.

12. بول د ي مان، العمى والبصيرة ـــ مقالات في بلاغة النقد المعاصرـــ، ترجمة سعيد الغانمي، المشروع القومي للترجمة، 2000.

13. وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تريوئيل يوسف عزبز، دار المأمون للترجمة والنشر، ط01، 1987 .

14. كريستوف نوريس، النفكيكية النظرية والممارسة، تر صبري محمد حسن، دار المريخ للنشر، الرياض، 1989 .

15. أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترسعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 02، 2004 .